# مستقبل الفلسفة البرغسونية
# من العقل إلى الروح

خالدي فتيحة طالبة دكتوراه/ جامعة محمد ابن أحمد، وهران 2
إشراف:اد. أنور حمادة، /جامعة محمد ابن أحمد، وهران 2

ملخص :

يرى الفيلسوف الفرنسي المغمور بين المادية والروحانية أن الوعي البشري يكمن في دمج العقل مع الواقع لصناعة حياة واعية تقوم على التطور الخلاق الذي يعبر عن ديمومة الفكر البشري المتولد دوما ، وهو ما عبرت عنه مؤلفاته التي تتسم بالروحانية حيث يميز بين الدين الاجتماعي والدين الميتافيزيقا على أنه يرى أن الدين الحيوي هو المتعلق بالممارسة الاجتماعية ، ولقد أسهم الفيلسوف "جيل ديلوز" في رسم معالم فلسفة برغسون من خلال مؤلفه " البرغسونية " .

ويرى برغسون أن الطاقة الروحانية مهمة للحياة الفكرية ولابد من البعد عن الميتافيزيقا بشكل كبير لإعطاء العقل فسحة للحرية الفكرية في الواقع الحياتي لدى البشر ، بحيث لابد لنا من التحكم في الزمان من خلال جعله ديمومة لفكرنا الذي نوظفه في الحياة وهو ما يعطينا طاقة روحانية كبيرة نستمد منها القوة الواعية .

الكلمات المفتاحية:

برغسون، التطور الخلاق، الدين، القيم

بدأت الدراسات الأكاديمية على نقد المشاريع الفكرية للفلاسفة و استشراف أطروحاتهم، لكن ما هو غير متداول البتة هو التطرق للحضور الذي يسجله مفكر ما في فكر الآخرين من الفلاسفة و المفكرين؛ و لا نقصد بهذا الحضور نقدهم له لأن هذه الجزئية قد تطرقنا إليها في المبحث السابق، بل المقصود بالحضور هنا هو تأثير المشروع الفكري لهنري برغسون في أفكار من جاؤوا بعده من المفكرين؛ عندئذ يجب الحديث عن الأفكار التي تتخذ من الفكر البرغسوني مرجعية أو قاعدة تنطلق منها، هذا ما يجعلنا نستحضر كلا من " **جيل دولوز**" الذي تأثر كثيرا بأفكار برغسون ناهيك عن عديد من المفكرين العرب الذين وجدوا في أفكار هذا الفيلسوف حقلا معرفيا خصبا يستحق العناية ليس عن طريق تحليله أو نقده بل عن طريق الاعتماد عليه في صياغة أفكار جديدة يكون هو من مهد لها.

على هذا الأساس كان لابد من إثارة هذه النقطة ذات الأهمية البالغة لأنها ستمكننا من تتبع الفكر البرغسوني بعد وفاة برغسون، بل إنها ستمكننا من قراءة هذا الفكر من جديد

وبكيفية أخرى مختلفة نعتمد فيها على وجهة نظر الآخر و هو ينطلق من مخلفات برغسون الفكرية سواء أكان ذلك بشكل قصدي متعمد و مدرك أم بشكل غير مقصود يثبت قوة الفكر البرغسوني في تأثيره على من جاء بعده من المفكرين.

الإشكالية المهمة التي نحاول علاجها تكمن في مفهوم الوعي في فلسفة برغسون المتعلق بربط الحياة بين جانبها الفكري ( العقل) وبين جانبها الواقعي المرتبط بالمادة والروح وذلك من خلال طرح جملة من التساؤلات التالية : هل يمكن القول أن فلسفة برغسون كونية من خلال تأثر جيل دولوز به وغيره من الفلاسفة اللاحقين ؟ كيف استفادت الفكر العربي المعاصر من روحانية برغسون بما يخدم البحث في الذات والأنا العربية ؟ ما هو مفهوم الوعي عند برغسون وما علاقته بالتطور والحدس والزمن والواقع الذي نعيشه ؟

قبل ذلك لابد من الإشارة لمفهوم العقل في المعجم العربي : لسان العرب لإبن منظور حيث أن العقل هو التمييز الذي يتميز الإنسان من سائر الحيوان ويقال لفلان قلب عقول ، ولسان سؤول ن وقلب عقول فهم ، وعقل الشيء عقلا فهمه ، ويقال أعقلت فلانا أي ألفيته عاقلا وعقلته أي صيرته عاقلا ، وتعقل : تكلف العقل كما يقال تحلم وتكيس ، [1].

بالنسبة للروح فتعني في اللغة نجدها معناها في معجم المعاني روح ( فعل) روح إلى /روح ب/روح على / روح عن يروح ترويحا فهو مروح والمفعول مروح للمتعدي ، روح القوم أي ذهب إليهم وروح الدهن وغيره جعل فيه طيبا طابت به ريحه [2]

[1] لسان العرب لإبن منظور ، الجزء 11 ،د-ط ، د- س ص 459

[2] معجم المعاني الجامع – معجم عربي عربي

**01 – جيل دولوز والبرغسونية**

بعد البحث و التقصي عن برغسون في فكر من جاء بعده من الفلاسفة عثرنا على مؤلف غاية في الأهمية و هو ذلك الموسوم ب: " البرغسونية " و الذي يعبر عن وجهة نظر الفيلسوف الفرنسي " جيل دولوز "، و هو عبارة عن مجموع مقالات لهذا الأخير تتمحور أساسا حول الفلسفة التي قدما برغسون؛ و تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المؤلف تم تعريبه من طرف أسامة الحاج دون أي تدخل من هذا الأخير في معناه، فهو إذا يقدم تصور دولوز في حوالي 132 صفحة حول الفكر الي عرضه لنا هنري برغسون.

إن محتوى هذا المؤلف لا يخرج عن المشروع الفكري لبرغسون، و بالأخص المفاهيم الثلاثة التي تعتبر مفاهيم مفتاحية لا يمكن لأي كان أن يستوعب المشروع الفكري لبرغسون دون الإحاطة بها و إدراكها الإدراك الذي كان هنري برغسون نفسه يقصده؛ و يمكن لنا تلخيص مضمون هذا المؤلف في النص الآتي الوارد في نهايته و الذي يمثل بالنسبة إلينا عصارته، و هو الآتي: " كنا نسأل في البداية: ما هي العلاقة بين المفاهيم الثلاثة الأساسية، مفاهيم الزمان، و الذاكرة، و الاندفاع الحيوي؟ أي تقدم تسجله في فلسفة برغسون؟ **يبدو لنا أن الزمان يحدد بصورة جوهرية تعددية إمكانية ( ما يختلف من حيث الطبيعة ). تظهر الذاكرة عندئذ كالتواجد المشترك لكل درجات الاختلاف في هذه التعددية، في إمكانية الفعل هذه، و يدل الاندفاع الحيوي أخيرا على تفعيل هذا الإمكاني وفقا لخطوط تمايز تتناسب مع الدرجات، وصولا إلى ذلك الخط الدقيق للإنسان الذي يعي فيه الاندفاع الحيوي ذاته".**[1] هذا النص يثبت أن جيل دولوز يلخص العلاقة بين هذه المفاهيم الثلاثة في نقطة تقاطع واحدة هي الإنسان، من حيث هو الكائن الوحيد القادر على إدراك الاندفاع الحيوي بطريقة حدسية شعورية، وما نلاحظه هو عدم تعقيب دولوز على وجهة النظر البرغسونية بل إن جيل دولوز يظهر تبنيا لأفكارها بشكل يثبت حضور هنري برغسون في أفكار جيل دولوز؛ بل إن هذا الأخير يعتبر هنري برغسون من بين الفلاسفة المؤثرين في الإنتاج الفلسفي اللاحق، أما المقصود بذلك فهو أن الفلاسفة نوعان، الأول ينتهي بسرعة لأنه لا يؤثر في من يأتون بعده، أما الثاني فهو الذي يستمر بعد وفاته عن طريق التسرب في أفكار اللاحقين من الفلاسفة واللذين أشرنا إليهم بالآخر نظرا لقوة أفكاره و شموليتها بالشكل الذي يجعلها حاضرة في كل موضوع فلسفي تقريبا.على إعتبار أن ' برغسون يروج للفلسفة الروحانية عن طريق الحدس كمنهج في المعرفة ، على الرغم من ماديته في الفكر ، حيث أن الزمان والذاكرة والإندفاع يشكلان منعطف كبير ومهم في فلسفة برغسون الروحانية ،فالحدس حسبه هو ليس عاطفة ولا إلهاما أو إنجذاب مشوشا بل منهج معد وحتى أحد مناهج الفلسفة الأكثر إعدادا له قواعده الصارمة التي تشكل ما يسميه ' برغسون الزمان في الفلسفة ، صحيح أن " برغسون يلح على التالي ، أن الحدس كما يفهمه منهجيا يفترض الزمان ، ولقد كانت هذه الاعتبارات حول الزمان

[1]- جيل دولوز، البرغسونية، تع أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت، ط 1، 1997م.ص 12

تبدو لنا حاسمة ودرجة بعد درجة رفعت لنا الحدس إلى مقام منهج فلسفي ، [1] ويردف برغسون قائلا : أن الحدس كلمة ترددنا أمامها طويلا وقد كتب إلى "هوفدينغ " ، أن نظرية الحدس التي نشدد عليها أكثر بكثير مما على نظرية الزمان لم تظهر لي إلا بعد هذه الأخيرة بزمن طويل ، بمعنى أن الحدس هي نتيجة حتمية لدرايته للزمان والذاكرة البشرية للتدليل على بناء فلسفته الروحانية التي تمد العقل بالطاقة ، وذلك لفهم حقيقة الحياة ، حيث أن برغسون يقول : أن المنطق يتدفق من خلال الأشياء الخاملة التي تعتبر جماد لا روح فيه ، لكن هناك شعور إلى جانب عدم الارتياح على هذه الأرض الجديدة ، فنكون حسب ' برغسون ' محرجين جدا ، لذلك نتشبث باكتشاف بيولوجي بفضل المنطق النقي الذي يعبر عن روح الحياة من خلال الجمع بين العقل وبين الروح [2]، ولأجل ذلك لابد من الفلسفة التطورية والتي هي تمتد دون تردد إلى أشياء العمليات التفسيرية التي نجحت في المواد الخام ،كان لديها بداية لإظهار لنا في الذكاء تأثيرا محليا للتطور ، يصفه " برغسون" بالتوهج الذي ربما هو عرضي يضيء مجيء وذهاب الكائنات الحية في الممر الضيق المفتوح لعملهم .

هذه هي ميزة أفكار برغسون حسب جيل دولوز فهي حاضرة كمنهج من خلال الحدس الذي قال عنه جيل دولوز: " إن الحدس هو منهج البرغسونية، بل هو منهج معد و حتى احد المناهج الأكثر إعدادا، له قواعده الصارمة، التي تشكل ما يسميه برغسون "الزمان" في الفلسفة."[3]إن هذا النص ليوحي بوجهة نظر بالغة الأهمية صاحبها هو جيل دولوز و موضوعها هو الفكر البرغسوني و دون تأويل أو شيء من تحميل النص معان بعيدة يمكن لنا إدراك مضمون وجهة النظر هاته و مفاده أن المنهج الذي وضعه برغسون لم يكن مجرد طريقة بالمعنى الضيق لمفهوم الطريقة - كيفية -، بل هو منهج لا يقل قيمة عن المنهج التجريبي الذي وضعه فرنسيس بيكون و طوره تلامذته و أتباعه من أمثال هيوم و لوك؛ أو منهجا لشك الديكارتي أو حتى المنهج الفينومينولوجي الذي صاغه هوسرل، إن المنهج الحدسي هو منهج معد أي تم الوقوف فيه على كل الحيثيات حتى الجزئية منها، لأن لفظ الإعداد يعني في اللغة الاهتمام البالغ و الإتقان في الإنشاء.

ثم ينتقل جيل دولوز بعد ذلك إلى مفهوم الزمان كمعطى مباشر ليس بالمعنى المتداول وهو تراكم الحوادث (ماضي، حاضر و مستقبل) بل الزمن الذي فهمه جيل دولوز عن برغسون هو اللحظات المتعاقبة و المتبدلة أي التي تعني الصيرورة أو الديمومة؛ عندئذ تبرز ضرورة الفصل بين الزمان و المكان في الفلسفة البرغسونية حسب جيل دولوز، و في هذا المقام كان لابد من ايجاد نص

[1] المرجع السابق ، ص05

[2] Henri bergson , le evolution créatirice, originalement publié en 1907 , paris les presses universitaires de France , 86e edition 372 ,1959 ,page 05

[3]- جيل ديلوز ، البرغسونية ، مرجع سابق، صفحة 06.

يمنح قراءتنا هاته المشروعية وهو الآتي:" يقدم لنا الزمان الخالص تعاقبا داخليا صرفا، من دون خارجية. و يقدم الحيز خارجية من دون تعاقب"[1].

أخيرا يهتم جيل دولوز في فلسفة برغسون بالذاكرة كوجود مشترك بالقوة، إذ يبرز دور هذه الملكة حسب برغسون في تكديس الماضي بعد حفظه في الحاضر؛ فالذاكرة هي التي تجعل الحدس قادرا على الوصول إلى كل المواضيع التي حتى و كانت قد مضت فالذاكرة تجد لها مكانا في الحاضر باعتبار الماضي عصيا على الحدس، كما تقدم الذاكرة للزمان صيغة لا نجدها إلا في فلسفة برغسون فالحاضر هو عبارة عن زمان متكدس أو إن صح القول هو الزمن الآني المشبع بالماضي المحفوظ في الذاكرة، لذلك يقول جيل دولوز عن برغسون في هذه الجزئية ما يلي:" إن الزمان في الجوهر هو ذاكرة.... و الحال أن هذا التماثل بين الذاكرة و الزمان بالذات، إنما يقدمه برغسون دائما بطريقتين: حفظ الماضي في الحاضر و مراكمته فيه أو إما الحاضر ينطوي على الحاضر الذي ما ينفك يكبر."[2]

نستنتج أن جيل دولوز يقدم برغسون كأحد أهرامات الفكر الأوربي بل الإنساني المعاصر بشكل عام، فهو إن صح القول فيلسوف ناحت لم يكتفي بفلسفة وصفية أو تحليلية لما هو كائن بل قدم فلسفة أبدعت مفاهيم وأفكار تميزها حتى وصلت رؤيا متميزة للوجود و الإنسان.

هذا بالنسبة لجيل دولوز و مؤلفه "البرغسونية" أما من العرب فلا أحد يشتغل على الفكر البرغسوني دون أن ينتبه لمؤلف حسن حنفي الموسوم بـ: "برغسون فيلسوف الحياة" الذي يعترف فيه حسن حنفي باعتباره أهم نماذج الفكر العربي المعاصر بأثر برغسون البالغ في فكره و شخصيته و دليل عن هذا الأثر خير من قوله: " أثيرت برغسونيتي الدفينة من خلال جان جيتون تلميذ برغسون المباشر....."[3]، هذا النص كما سلف الذكر يثبت تأثر حسن حنفي بأفكار هنري برغسون بل أكثر من ذلك لأن النص يوحي أن البرغسونية شبيهة بالفطرة لا تحتاج إلا لمن يوقظها فينا.

## 02 – حسن حنفي قارئا لبرغسون

فهو عموما يمثل تقديما لهذا المفكر عن طريق جمع أفكاره كلها في مدونة واحدة تمكن الطلاب من التطرق للمشروع الفكري لهنري برغسون دون معاناة البحث في مؤلفاته لأن ما قدمه حسن حنفي يمثل عملا أكاديميا صرفا لم يتم فيه المساس بما كان يريد برغسون أن يقدمه للعقل من انتاج فلسفي متعدد المشارب، و ما يهمنا نحن في هذا المؤلف هو الموضوع الديني عند برغسون من وجهة نظر حسن حنفي و الذي خص له فصلا كاملا هو الفصل الثالث من الباب الثاني (من الصفحة

[1]- المرجع السابق، صفحة 35.

[2]- المرجع نفسه، صفحة 53.

[3]- حسن حنفي، برغسون فيلسوف الحياة، مكتبة المصري للمطبوعات، القاهرة، دون طبعة، 2008، صفحة 04.

256 إلى الصفحة333 ) و فيه يفرق حسن حنفي بين تطورية داروين و سبنسر من جهة و بين تطوري برغسون، فلأن الأولى كانت مستهجنة في الفكر العربي الحديث و المعاصر كان لابد تمييز الثانية عنها و النص الآتي يثمن ذلك: " و الكتاب موجه للخطأ الشائع في نظرية التطور الآلي عند داروين و لامارك و سبنسر وهو تصور التطور في خط متصل لا انقطاع فيه....."[1]، ففي هذا النص نكتشف أن حسن حنفي إنما يباشر التمييز بين التطور الداروينى المستهجن و التطور الخلاق البرغسوني دفاعا عن برغسون من جهة و تبريرا فيما بعد لخيار حسن حنفي المتمثل في ضرورة الاستلهام من الفلسفة التي قدمها برغسون باعتبارها فلسفة تعبر عن نضوج العقل.

كما يتميز طرح حسن حنفي للمشروع الذي قدمه هنري برغسون بالطابع التحليلي المحض إذ يقوم حسن حنفي باستعراض أفكار برغسون و شرحها بطريقة مستفيضة تبسطها للقارئ حتى يتسنى له فهم محتواها الفلسفي بكل أبعاده، فمن خلال عشرة فصول كاملة مقسمة على بابين يقوم حسن حنفي بعرض شارح لأطروحة برغسون كما يلي:

**الإطار النظري لفلسفة برغسون:**

في هذا الفصل يستعرض حسن حنفي فلسفة هنري برغسون كمعطى فكري صرف لا يؤخذ فيه الواقع بعين الاعتبار، بمعنى أن الغرض من هذا الباب كان حتما شرح الفكرة البرغسونية من حيث بنائها الفكري و المنطقي لا غير و قد كان ذلك في خمسة فصول على النحو الآتي:

الموضوع: في هذا الفصل يحدد حسن حنفي موضوع فلسفة برغسون، إذ يعتبر الطاقة الروحية هي خاصرة الفلسفة البرغسونية؛ معنى ذلك أن هنري برغسون حسب حسن حنفي يميز في الإنسان البعد الروحي كطاقة تستحق أن ينبري لأجلها القلم الفلسفي و النص الآتي يثمن ذلك: " و يظهر الموضوع في الطاقة الروحية مع عنوان فرعي (محاولات و محاضرات) و يشمل سبعة موضوعات؛ الوعي و الحياة، النفس و البدن، أشباح الأحياء و البحث النفسي، الحلم، تذكر الحاضر و التعرف الخاطئ، الجهد العقلي، المخ و الفكر وهم فلسفي،....."[2].

هذا النص يثبت أن برغسون يميز في الإنسان بعده الروحي كطاقة فاعلة تخترق الحيز بل تقفز فوقه فلا يبقى إلا الزمن القدر على استيعابها.

المنهج: لا يختلف حسن حنفي عن كل الفلاسفة اللذين تحدثوا عن برغسون، فمنهج هذا الأخير هو المنهج الحدسي لكن ما يميز قراءة حنفي عن جل القراءات التي صادفناها هو أن المنهج الحدسي بالنسبة لحسن حنفي هو أنه يعبر عن الشخص أي الذات لا الموضوع فالحدس العقلي إنما هو في

[1]- المرجع السابق، صفحة 256.

[2]- المرجع السابق، صفحة 15.

الواقع نظرة كل واحد منا للأشياء كما تبدو له؛ لكن ذلك لا يعنى أن الإنسان مقياس كل شيء بقدر ما يعني وجهة النظر الحرة العاقلة للموضوع سواء أكان هذا الأخير العالم الخارجي أو الذات كموضوع داخلي؛ و هنا يستوقفنا النص الآتي: "

و الحدس مرتبط بالشخص، و الشخص تعاطف عقلي أو روحي، و هو مع الذات قبل أن يكون مع الموضوع....."[1].

كل ما سبق لا يخرج عن العادة لكن عندما يتحدث حسن حنفي عن فينومينولوجية الحدس عن طريق إبراز العلاقة بين برغسون و إدموند هوسرل، عندئذ يبدو برغسون في كتابات حسن حنفي مختلفا، فالحدس كمنهج هو شكل من أشكال قلب النظرة من الخارج إلى الداخل أي من الواقع إلى الشعور الملاحق لتغيرات العالم الخارجي[2]؛بمعنى أن المنهج الحدسي إنما هو في الحقيقة علاقة بين الإنسان و الوجود.

الصورة الفنية: يحدد برغسون تجربته الذوقية أو الفنية في الفلسفة حسب حسن حنفي من خلال الأدب و الفلسفة، فالعلاقة بين الأدب كأداة و الفلسفة كغاية يؤدي إلى صورة فنية رفيعة؛ لأن الأدب أصبح أداة في يد الفلاسفة بالشكل الجلي مع الوجوديين لكن برغسون كان سباقا لذلك.

البيئة الفلسفية: يتحدث حسن حنفي في هذا الفصل عن العلاقة المتينة بين برغسون و رافيسون و كيف ساهمت في ميلاد الفكر الروحي، ولا يهمل حسن حنفي في المقابل الدور الذي لعبته المادية الأنجلوسكسونية و أتباعها من الفرنسيين و غيرهم أمثال كلود برنارد و ريبو وحتى البراغماتيين في تطوير الفكر الروحي البرغسوني، هذه البيئة الثقافية هي التي ساهمت في نحت فلسفة برغسون بل و شخصيته أيضا.

مسار الحضارة الأوربية: هذا الفصل هو من الأبرز في نظرنا على الإطلاق لأن حسن حنفي يبرز فيه كيف تعامل برغسون مع مجمل الأفكار الأوربية كالعقلانية و التجريبية و النقدية و حتى العبقرية الأمريكية التي يؤكد انبهاره بها، لكن الملفت للانتباه هو أن حسن حنفي يتهم برغسون بأنه صاحب نزعة تمجد الاستعمار خاصة الفرنسي و تجاهله للحضارة الإسلامية و الدور الذي لعبته في بنا الحضارة البشرية فكتاب منبعا الأخلاق و الدين هو المؤلف الوحيد الذي عرج فيه على حضارتنا من خلال الفصل الثالث[3].

نستنتج أن الدكتور حسن حنفي في الباب الأول من مؤلفه "برغسون فيلسوف الحياة" قد وفق في إبراز الجانب النظري من الفلسفة البرغسونية، كما نلاحظ أن اعترافه بالشغف الذي يكنه لفلسفة برغسون لم يمنعه من إقرار الفكر الاستعماري لهذا الفيلسوف؛ الأمر الذي يثبت أن حسن

[1]- المرجع نفسه، صفحة 43.

[2]- المرجع السابق، صفحة 43.

[3]- المرجع السابق، صفحة 189.

حنفي تعامل مع برغسون بموضوعية كبيرة تجعل منه أبرز المفكرين الشراح للمشروع الفكري البرغسوني.

هذا بالنسبة للباب الأول أما الباب الثاني فقد خصصه حسن حنفي للجانب التطبيقي من فلسفة هنري برغسون، و رغم ما تبدو عليه هذه الخطوة من المغامرة إلا أن حسن حنفي حاول و من خلال خمسة فصول أخرى إبراز الجانب العملي في هذه الفلسفة ففي هذا الباب يوضح لنا حسن حنفي كيف يقوم برغسون بتطبيق منهجه الحدسي ستة مرات على النحو الآتي:

المعطيات البديهية للوجدان: التطبيق الأول تجسد في كتابه رسالة في المعطيات البديهية للوجدان و فيه يميز بين المكان و الزمن، فالحدس يظهر كمنهج لا بديل له عندما يمكننا من ملاحقة الزمن و في ذلك تطبيق يثمن اختيار برغسون لهذا المنهج دون غيره.

المادة و الذاكرة: التطبيق الثاني للمنهج الحدسي تجسد هذه المرة من خلال التمييز بين البدن و النفس الجسم و الروح لأن برغسون يدرك العلاقة الوطيدة بينهما لكنه يركز على الفرق الذي يمكن من المفاضلة بينهما لصالح الروح على حساب الجسد.

التطور الخالق: يطبق هذه المرة برغسون منهجه على الموضوع الديني و تفنيد الأطروحة الداروينية التي روج لها كل من لامارك و سبنسر ليثبت أن التطور لا يتخذ خطا مستمرا بل منكسرا في عدة اتجاهات [1]، بمعنى أن التطور الذي تحدث عنه الماديون غير مقبول من ناحية الشكل أو الكيفية التي يتم بها في نظر برغسون.

منبعا الأخلاق و الدين: هذا العمل هو خاتمة الإنتاج الفكري لبرغسون لأنه لم يكتب بعده و لمدة تسع سنوات لذلك يعتبر منبعا الأخلاق و الدين عصارة الفكر البرغسوني فرغم تفاؤله حسب حسن حنفي بالدافع الحيوي إلا أنه كان متشائما إزاء التقدم التقني الحاصل لأنه يعبر عن الآلية و المادة بعيدا عن الروح.

أخيرا الديمومة و التزامن و الضحك: يحدد برغسون في هذا التطبيق خصمه و هو أينشتين عالم الفيزياء و صاحب أطروحة النسبية و يفند تصوراته الأمر الذي يثبت حسب حسن حنفي نقدية برغسون لكل من يسبح ضد تيار الدافع الحيوي و الروح المتعال على المادة، أما الخلاف فقد تمحور أساسا حول تصور كل منهما للزمن فالزمن في نظر اينشتين يرتبط بالمكان أي أن هذا الأخير هو مقياس الأول الأمر الذي يرفضه برغسون [2].

خلاصة القول أن حسن حنفي هو أبرز المفكرين العرب ممن تطرقوا لفلسفة برغسون بالتحليل خاصة و الشرح الأكاديمي الذي يبسطها لطلاب الفلسفة عموما و مريدي هذا الفيلسوف خاصة، و الحقيقة أننا لمسنا الغاية التي كان ينشدها حسن حنفي بدليل أننا بقراءة مؤلفه "برغسون فيلسوف

[1]- المرجع السابق، صفحة 265.

[2]- المرجع نفسه، صفحة 344.

الحياة" لم نجد و لا عقبة في فهم الفلسفة الروحية أو الحدسية لا على المستوى النظري و لا على المستوى التطبيقي الذي يلقي بنا مباشرة في صلب الإنتاج الفكري الذي قدمه برغسون.

هذا الفيلسوف الذي حظي ابان حياته بشهرة منقطعة النظير لم تتوافر لأي فيلسوف من قبل حتى صارت فلسفته فكرا واسع الانتشار في فرنسا يوثر في دوائر مختلفة : فلسفية ودينية وأدبية حدث له العكس تماما بعد وفاته إذ حدث انصراف تام او شبه تام عن فلسفته حتى صارت تقبع في ظلال النسيان ابتداء من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم خصوصا وقد اكتسحتها الوجودية تماما إضافة إلى البرغماتية؛هذا و يجب أن نشير إلى أن من أسباب هذه الشهرة الهائلة لبرغسون ومؤلفاته أثناء تلك الفترة أسلوبه الرائع في الفرنسية مما جعله يعد من كبار كتاب هذه اللغة ومن اجل هذا الأسلوب خصوصا منح جائزة نوبل في الآداب فأسلوبه يتسم بالطلاوة والموسيقى وبتوافر الصور الشعرية والتشبيهات الموفقة مما يجعل لقراءة كتبه متعة تعادل الأعمال الأدبية العظمى ، هذا مع الدقة في التعبير الفلسفي وجمال أسلوبه هذا كان من أهداف خصومه في هجومهم عليه : اذ اتهموه بعدم التحديد، وضباب العبارة وعدم وضوح الفكرة لكن برغسون دافع عن أسلوبه هذا باضطراره الى التعبير عن أمور جديدة كل الجدة لم تألف معانيها اللغة الموروثة، بالصور والتشبيهات وبإعطاء الألفاظ الموروثة معاني جديدة غير مألوفة في اللغة الفلسفية والعلمية والتقليدية ويرجع هذا الى طبيعة مذهبه القائم على التغير الدائم والحركة المستمرة وعدم ثبات أي شيء ونفوذ الفكر في كل موجود بحيث يصعب بل يستحيل إدخاله في الإطارات الثابتة للغة التي من طبيعتها الثبات والسكون .

يلاحظ كذلك أنه لم يلجأ أبدا إلى اختراع كلمات جديدة للتعبير عن أفكاره الجديدة هذه لكنه كان يرى أن الفلسفة في أعلى تحليلاتها وتركيباتها ملزمة بأن تتكلم اللغة التي يتكلم بها الناس وإلى جانب جمال أسلوبه في الكتابة كان محاضرا جذابا من الطراز الأول ولهذا كان يؤم محاضراته في ( الكوليج دي فرانس)حشد هائل من الناس لم يشهد هذا المعهد مثيلا له عند أي أستاذ، حشد سحرته الكلمة أكثر مما جذبته الأفكار بل ربما كان السواد الأعظم من هذا الحشد لا يفهم شيئا في الفلسفة.

### 03 - الوعي بالحياة عند هنري برغسون

من خلال مؤلفه التطور الخلاق لابد من الإشارة لفلسفة " برغسون الكونية التي تقوم على الفكر الخلاق من خلال مفهوم الديمومة ، ويرى برغسون أن التفكير المبكر السابق لأوانه الذي يقوم به العقل على ذاته ،يبعدنا عن التقدم في حين نجد أن التقدم الخالص البسيط يقربنا من المعرفة ويرينا فوق ذلك أن كل العقبات ما هي إلا مفاعيل شرسة بمعنى مفتعلة فقط ، ويقدم مثالا على ذلك من خلال قوله أن عالم الميتافيزيقا لا يتخلى عن الفلسفة وينحاز إلى الانتقاء أي لا يتخلى عن الغاية

من أجل الوسيلة ، وعن الفريسة من أجل ظلها في أغلب الأحيان ، [1] وذلك يكون بأن يصل أمام مسألة المنشأ والطبيعة ومصير الإنسان فهو يتقلص عنها لكي لا ينتقل إلى مسائل يعتبرها أعلى منها فينطلق حسب "برغسون " نحو حل مسألة مصير الإنسان فهو يبحث في الوجود عامة ، ويبحث في الممكن وفي الواقع في الزمن وفي الفضاء في الروحانية وفي المادية ، ثم ينزل درجة درجة ، ليصل إلى الشعور أو الوعي وإلى الحياة سعيا وراء إدراك الجوهر ، ولكنه لا يرى إلا أن تأملاته هي تجريد خالص وأنها تتناول الأشياء ، من خلال هذا الكلام يمكن القول أن "برغسون " يتطلع إلى الوصول لحقيقة الحياة وهي الطاقة الروحية للبشر باعتبارها ديمومة ملحة للوجود فيما ما هو ممكن أي ما يمكن التدليل عليه علميا ، وهو ما عبر عنه " برغسون " بقوله أن الحل يكمن في الملاحظات المتعلقة بمفهوم مزدوج للواقع ، الواقع العقلي والواقع مادي في الحياة ككل .[2]

ولنفهم الواقع لابد للوعي أن يكون مرتبط بالدماغ ( العقل ) وبالتالي حسب "برغسون" يجب غزو الوعي إلى الكائنات الحية ذات الدماغ ورفضه لغيرها ولكنك تدرك في الحال خطأ هذه الرهنة إذ بالتدليل بنفس الكيفية يمكن القول أيضا أن الهضم مرتبط عندنا بالمعدة ، وإذن فالكائنات الحية ذات المعدة تهضم والأخريات لا تهضم عندها ترتكب خطأ خطير جدا إذ لا يتوجب أن تكون لها شكل مميز فقط كلما تعقد الجسم الحي واكتمل ينقسم وتنخفض الأعضاء المتنوعة بوظائف متنوعة أما القدرة على الضهم فتتموضع في المعدة [3] ، ويفسر برغسون النمو والتطور بالقول: أن كل نوع من الأنواع الحية قد صدر دفعة واحدة عن ( نزوة حية ) من وجدان شبيه بوجداننا وأعلى منه فهو في النبات سبات وجمود وفي الحيوان غريزة وفي الإنسان عقل وهذه طبقات مختلفة بالطبيعة لا بالدرجة فقط أما المادة فقد نشأت من وهن التيار الحيوي أو توقفه فما هي إلا شيء نفسي تجمد وتمدد[4]؛ ويعطي برغسون تشبيها هو الآتي عن نشوء المادة : "أن الماء عندما يخرج من النافورة يرتفع خطا كثيفا، ثم يهبط على شكل مروحة فتنفصل نقط الماء المتراصة فتتباعد وتتساقط في مساحة أوسع كذلك المادة فهي شيء نفسي متراخ صار متجانسا وهي إمكانية محضة وحدا أدنى من الوجود والفعل".

السؤال المطروح لدى "برغسون" لنخرج من هذه النقطة هو ما هو الوعي؟ يرى "برغسون" أن الوعي هو يعني قبل كل شيئ الذاكرة ، قد تفتقر الذاكرة إلى الاتساع ، وقد لا تشمل إلا قسما من الماضي وقد لا تحفظ إلا ما حصل من قريب ، لكن الذاكرة يقول "برغسون" " أن الذاكرة تكون موجودة وأن لا يكون الوعي موجودا فيها ، فالوعي الذي لا يحفظ شيئا من ماضيه والذي ينسى ذاته

[1] هنري برغسون ، الطاقة الروحية ،ترجمة علي مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط1 1991 ، ص 6

[2] Henri bergson (1859- 1941) durée et simuil tanéité à propos de la théorie de entein , 1922, page 30

[3] هنري برغسون ، الطاقة الروحية ، مصدر سابق ، ص 10

[4] - حسن حنفي ، برغسون فيلسوف الحياة ، مرجع سابق ، صفحة 146.

باستمرار يتلف ثم يولد في كل لحظة ، وإلا كيف يمكن تعريف اللاوعي بغير هذا ؟"[1] هذا يعني أن الذاكرة حسبه تحمل في طياتها وعينا بالحياة من خلال الزمان والتاريخ تناقص وتتزايد حسب قدراتنا على استيعابها بالعقل الواعي ، وبالتالي فالأمر يتعلق بالتراكمية في الحياة التي محلها الذاكرة ، ومن هنا يمكن القول أن العناصر الثلاث المتعلقة بالذاكرة والزمن والحدس هي مشكلات الفلسفة البرغسونية الروحي المتعلقة بالوعي بالنسبة لفهم واقع الحياة المتعلقة بالديمومة ، أي الاستمرارية ، فكل وعي حسب برغسون هو هو استباق للمستقبل يقول برغسون أنظر لتوجه فكرك في أية لحظة : نجد أنه يهتم بما هو قائم ، إنما من أجل ما سوف يكون إن الانتباه هو انتظار ولا يوجد وعي بدون انتباه للحياة بمعنى أن الحياة تقوم على أحداث لابد لنا من النظر أليها وتسجيلها بشكل دقيق يدعو للتدبر والتفكر العقلاني بما يخدم وعينا الفردي المتعلق بالذاكرة ، فالإنسان ليس حزمة من الأفعال اللاإرادية وأنه أسير نفسه الغريزية العدوانية الأنانية مدى حياته.

وهذا الرأي السلبي يأخذ به الكثير من الناس وكذلك علماء الاجتماع والوراثة والنفس والأنثربولوجيا، وحتى السياسيين وهو ما ذهب لتفنيده الفيلسوف البريطاني " جون لويس من خلال مؤلفه " الإنسان ذلك الكائن الفريد" ، حيث يرى أن الإنسان كائن منفردا جدا مقارنة بباقي الكائنات الحية من حيث العقل والإبولوجيا والسلوك ، وكل هذه المحددات تعبر عن مدى وعيه بذاته وبما حوله ، فنظرية البقاء للأقوى التي تعبر عن أن الحياة صراع فقط والتي عملت الداروينية الاجتماعية على ترسيخها[2] لا تعبر عن حقيقة الإنسان الواعية التي عمل "برغسون على ترسيخها لذلك نجد له أثر عميق لدى الفلاسفة اللاحقين وحتى العرب منهم ، فسيكون من الضروري استخدام الحياة بكل ما تحتويه من ظواهر نفسية حسب "برغسون" وذلك لجعل الفهم النقي ممكنا .

لكن خط التطور الذي يؤدي إلى الإنسان ليس هو الخط الوحيد إضافة لتطورات ومسارات أخرى متباعدة من أشكال أخرى من الوعي الذي لم يمكن البعض من تحرير أنفسهم من القيود الخارجية ، كما فعلت المخابرات الإنسانية على حد تعبير "برغسون"، لكنها لا تعبر عنها بأقل من ذلك ، لذلك الحركة التطورية مهمة لتقريبهم من بعضهم البعض مما يجمعهم ومن ثم نحصل على الذكاء ثم نحصل على وعي كامل، فالطبيعة هي مرآة عاكسة لنا حيث نجد أن الضحك كفعل إنساني هو جزء بوعينا الإنساني على اعتبار أن الحيوان لا يعي ذاته الحيوان لا يعي ذاته الحيوانية ، فنحن نضحك إلا من مشهد إنساني وما يوحي به فقط، وإلا كنا بلهاء ومجانين ، فنحن نضحك من كلب قصى جزء من شعره ومن حديقة أزهارها ذات الوان مصنوعة ومن غابة فرشت أشجارها بإعلانات إنتخابية .....الخ يقول "برغسون مردفا في الكلام ' لو بحثتم عن السبب في ذلك لوجدتم أنه انصرف

[1] هنري برغسون ، الطاقة الروحية ، مصدر سابق ، ص 08

[2] جون لويس ، الإنسان ذلك الكائن المنفرد ، ترجمة صالح جواد الطاظم ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، بالتعاون مع دار الثقافة ، بغداد ، العراق ، ص 05

ذهنكم إلى نوع من التقنع على أن المضحك هنا ضعيف جدا لأنه كثير البعد عن منبعه ' لذلك فلنرجع صورة التنكر الفريدة هذه إلى الصورة الأصلية وهي كما تفكرون صورة تلبس إل الحياة فالطبيعة الملبسة تلبس أليا باعث صريح عن الضحك ، طبعا كل ذلك يقع ضمن القالب الإجتماعي الذي نعتبره كائنا حيا حسب "برغسون "[1] ، فهناك علاقة قوية بين الفكر وبين الواقع لدرجة ربما تجبرنا على قبول ممارسات لا تمت للفطرة بشيئ كما حدث في المجتمع الفرنسي الذي تحول نحو الإنحلال عقب الحرب العالمية الأولى بسبب تداعيات الحرب السياسية والإقتصادية على البلد ، حيث ظهرت أصوات دعت للتخلي عن القيم واشباع النزعات الفردانية في الحياة مما سهل قبولها في الواقع بسبب الوضع المزري للناس فكان تمريرها لدى العامة سهلا وممكنا ذلك أن الوعي كان مغمورا بنتائج الحرب التي عطلت حياة الناس [2] مما جعل قبولهم لتلك الإملاءات الظرفية سلسا طمعا في تغيير ظروف الحياة الصعبة فكان وعيهم مرتبط بالجانب المادي وابتعد عن الجانب الروحي الذي جعلهم ينغمسون في المادة .

الخاتمة

كإجابة عن التساؤلات السابقة يمكن القول أن هنري برغسون من أكبر الفلاسفة في تاريخ الفلسفة ولعله أكبر فيلسوف على الإطلاق في النصف الاول من القرن الماضي كان نفوذه واسعا وعميقا فقد أذاع لونا من التفكير وأسلوبا من التعبير تاركا بصماتهما على مجمل النتاج الفكري في مرحلة الخمسينيات ولقد حاول أن ينفذ القيم التي اطاحها المذهب المادي , ويؤكد إيمانا لا يتزعزع بالروح الإنسان المعاصر في حاجة ماسة إليه اليوم أكبر من أي وقت مضى، كما ان هنري برغسون أثر كثيرا في فكر فلاسفة عرب معاصرين مثل حسن حنفي من خلال توظيفه لمسألة الوعي في إرساء الذات العربية في مشروعه نحو الإستغراب وفهم الأنا العربي والهوية ، والوعي عند برغسون هو فهم تجليات الحياة من خلال توظيف الذاكرة وما تحمله من خلجات تعبر عن تطور الفكر البشري من خلال وعينا بالواقع والطبيعة من حولنا .

نستنتج أن فلسفة الحياة عند" برغسون "فيها التطبيق الأكثر منطقية فقد تساءل عن معنى الحياة فقال:"بالنسبة إلى الوجود الواعي : أن يوجد هو أن يتغير , وأن يتغير هو أن ينضج، وأن ينضج هو أن يخلق نفسه باستمرار ( التطور الخالق) . إن الكون يعاني المدة والمدة معناها الاختراع وخلق الأشكال والصنع المستمر لما هو جديد على وجه الاطلاق والمدة تقدم مستمر من الماضي الذي يعرض المستقبل وينتفخ وهو يتقدم"[3] .

[1] هنري برغسون ، الضحك ، ترجم سامي الدروبي ، عبد الله عبد الدايم، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، د.ط ، د.س ، ص 40

[2] حبيب الشاروبي ، بين برغسون وسارتر – أزمة الحرية ، دار المعارف ، د- ط، 1962 ، ص 18

[3]- جيل دولوز، البرغسونية، مرجع سابق ،صفحة 143.

يتحدث برغسون عن خصائص الحياة النفسية وكيف تتحقق في الحياة النامية فالكائن الحي ليس مجرد مركب من عناصر سابقة؛ الحياة شيء غير العناصر وشيء أكثر من العناصر إن الكائن الحي ( يدوم ) ديمومة حقة إذ أنه يولد وينمو ويهرم ويموت وهذه ظواهر خاصة به لا تبدو بأي حال في المادة البحتة وليست الأنواع الحية ناشئة من أصول متجانسة نمت وتحولت بتأثير القوى الفيزيائية والكيميائية بطريقة الصدفة العمياء .

إن الموضوع الذي حاولنا قدر الإمكان أن ننجح في إثارته على المستوى الأكاديمي أولا كمجال بحث يعتبر إلى حد ما مغمورا في الدراسات العربية المعاصرة و على المستوى الفلسفي ثانيا كحقل يستوجب التحليل تم السكوت عنه و وضعه على الهامش؛ هو موضوع يحتاج إلى ما هو أعمق و أكثر جرأة من دراستنا المتواضعة هذه، لا لشيء سوى لأن الدين يعتبر بحق البداية و النهاية و نقطة تقاطع كل أبعاد الإنسان.

لقد اكتشفنا أن الدين و التدين هو أول ممارسة جسدت وعي الإنسان و هو الذاكرة الأقدم على الإطلاق لما تحمله من تاريخ يمكن من فهم العديد من الظواهر الإنسانية التي ستبقى مبهمة خارج الإطار الديني. كما أن الدين يفسر المجتمع كظاهرة و يحدد علاقاته وبنيته بل حتى جغرافيته في بعض الأحيان و مبادلاته الاقتصادية.

إن الدين بحق هو الموضوع الذي من المستحيل أن تحيط أي دراسة بكل تشعباته، إنه يعبر عن الفرد مثلما يعبر عن الجماعة و قد رأينا كيف ارتبط حتى بالإبداع و المخيال الفردي هو من غرس الطمأنينة في نفس الإنسان عندما كان يشعر بالوحدة و الوحشـــة و اللا أمن هو فعلا الطاقة التي تسير بها مركبة التاريخ و بذلك ثبت لدينا أننا لم نخطئ في اختياره مجال بحث فلسفي. أما **هنري برغسون** فرغم ما وجه له من انتقادات و رغم ما حاولنا نحن أن نصوغه من تعقيبات إلا أنه يبقى أحد أفضل من اهتموا بالدين كموضوع فكري، فهذا المفكر يبقى مشروعا في حاجة إلى دراسات أخرى لأن ما حاولنا تقديمه هو مجرد محاولة جد متواضعة لا تخلو من نقائص عديدة لا زلنا ندرك بعضا منها إلى حين صياغة هذه الأسطر الأخيرة .

الوعي بالحياة هو تجلي للتلاقي بين الروح والمادة في فكر الإنسان من خلال ربطه واقع الحياة بما تحمله الذكريات من لحظات مهمة له .

## قائمة المصادر والمراجع


- **المصادر باللغة العربية**

**01** – برغسون هنري، الطاقة الروحية ، ترجمة علي مقلد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط1 1991

02 - برغسون هنري ، الضحك ، ترجمة سامي الدروبي ، عبد الله عبد الدايم ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، برعاية السيدة سوزان مبارك ، د-ط ، د-س .

- **المصادر باللغة الاجنبية**

03-bergson henri , durée et simuil tanéité à propos de la théoriede entein 1922

04 - bergson henri ,le evolution créatinice originalement publié en 19077,paris les presses universétaires de france86² edition 372 1995

**المراجع**

05 - دولوز جيل ، البرغسونية ، ترجمة أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1997 .

06 - حنفي حسن ، برغسون فيلسوف الحياة ، مكتبة المصري للمطبوعات ، القاهرة ، ط1 2008 .

07- لويس جون ن الإنسان ذلك الكائن المنفرد، ترجمة صالح جواد الكاظم ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، بالتعاون مع دار النشر الثقافيبة ، بغداد ، العراق ، د- ط، ، 1986 .

08 – الشاروبي حبيب ، بين برغسون وسارتر –أزمة الحرية ،دار المعارف ملتزم للطبع والنشر ، القاهرة ، د- ط، 1962 ، ص 08 .

العاجم والموسوعات

09 ابن منظور لسان العرب ، المجلد 11